تأثير ترامب: أشد خطرًا من الرجل ذاته

ترجمة وتحرير نون بوست

صحا القطريون من نومهم ليلة الأمس على مخاوف من انقلاب وشيك الوقوع في الأيام الأولى من حقبة سوداء حلت على المنطقة بعد أن بارك ترامب حكامها الطغاة

هذه أيام حالكة السواد، اسودت بذبح الأطفال في مانشستر، بقدر ما سودتها الحفاوة المتملقة التي استقبل بها دونالد ترامب في الرياض. ثم ما لبثت أن ازدادت حلكة وسوادًا بسبب تأثير ترامب، والذي يمكن أن يكون أشد خطرًا من الرجل ذاته.

لقد كان ترامب في غاية الوضوح مع هؤلاء الزعماء العرب الذين أدوا له الجزية: "لم آت إلى هنا لأتحدث عن حقوق الإنسان، بل لن أعيد التفوه بالكلمة ولا لمرة واحدة. لست هنا لكي أحاضركم في الديمقراطية. بإمكانكم أن تفعلوا ما شئتم بشعوبكم، فهذا شأنكم. في الحقيقة، لم آت إلى هنا لكي أحدثكم عن الحياة أبدًا. وإنما جئت لأتكلم عن الموت. أريد منكم أن تمسحوا الجهاديين من على وجه المعمورة." ذلك ما بدا متحدثًا به لهم.

لم يكن ذلك المتحدث هو سيسرو وإنما قيصر. كل ما كان يعول عليه في تلك اللحظات هو القرب من هذا المصدر الجديد للحكمة والسلطان. حينما وقف الزعماء لالتقاط صورة جماعية في نهاية القمة، وقف الملك سلمان على يسار ترامب بينما وقف أمير قطر على يمينه. أقرب ما تسنى للسيسي الوصول إليه كان الوقوف إلى جانب الملك عبد االله الثاني الذي كان يقف بمحاذاة الملك سلمان.

أما محمد بن زياد، ولي عهد أبو ظبي، فوصل متأخرًا. صافح السيسي ثم دفع بنفسه ليقف بين ترامب وأمير قطر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني.

تحركات ليليلة

صحا القطريون من نومهم ليجدوا موقع وكالة الأنباء القطرية الرسمية "قنا" على الإنترنيت وقد نقل عن حاكم قطر تصريحات بالغة الضرر ما كان ليخطر ببال حاكم دولة خليجية الجهر بها، مفادها أن الدوحة لديها توترات مع ترامب، وأن إيران قوة إسلامية معتبرة ليس من المحكمة أن يكن لها العداء، وأن ترامب يواجه مشاكل قضائية في بلاده.

كانت تلك أخبارًا زائفة وفجة زرعها الهاكرز، الذين اخترقوا موقع الوكالة القطرية. بادئ ذي بدء، لم يلق الأمير خطابًا في حفل تخريج الفوج الجديد من منتسبي الجيش، ومع ذلك تنسب التصريحات المزعومة إلى ذلك الخطاب الذي لم يكن. وثانيًا، لا يمكن لحاكم عربي في كامل وعيه أن يقر بشكل علني وفي حفل رسمي أن له علاقات وثيقة بإسرائيل.

سارعت قناتا العربية والإخبارية المملوكتان للسعودية وقناة سكاي نيوز العربية المملوكة جزئيًا للإمارات إلى إلغاء برامجها المعتادة لصالح تغطية كاملة ومباشرة للأخبار الزائفة وعلى مدى ساعات الليل

سواء كانت تلك أخبارًا زائفة أم لا، فقد شمرت وسائل الإعلام السعودية والإماراتية عن سواعدها. حيث سارعت قناتا العربية والإخبارية المملوكتان للسعودية وقناة سكاي نيوز العربية المملوكة جزئيًا للإمارات إلى إلغاء برامجها المعتادة لصالح تغطية كاملة ومباشرة للأخبار الزائفة وعلى مدى ساعات الليل. كانت التغطية الإعلامية للأخبار الزائفة سريعة ومتكاملة، بحيث يستحيل إلا أن تكون قد سبق التخطيط والترتيب لها. استغرق القطريون ساعات حتى يفيقوا من غفوتهم ويصدروا نفيًا. ولكن، تم تجاهل نفيهم ولم يحظ بأي تغطية حتى الصباح.

استمر الهجوم على قطر طوال الأربعاء، ونشرت قناة العربية ما قالت إنه "دليل" على أن خطاب الأمير لم يكن من فعل الهاكرز، إلا أن مقالها لم يتطرق إلى حقيقة أن شريط الأخبار على الشاشة قد تم التلاعب به. ثم ما لبثت وزارة الخارجية في دولة الإمارات العربية المتحدة أن أعلنت حظر جميع الواقع الإخبارية القطرية.

كانت عملية الاختراق من قبل الهاكرز على مستوى عال من المهنية، وحققت الغرض المرجو منها. حينما أدرك الناس ما الذي كان يجري، انبعثت الصدمة في أوصال المملكة الصغيرة، وجفا النوم عيون المواطنين الذين ظنوا أن انقلابًا كان قيد التنفيذ.

ضوء ترامب الأخضر

يشير أصبع الاتهام إلى عدد من جيران قطر المبادرين لها بالعداء، ولكن بالذات إلى الإمارات، والتي يتوفر لديها الدافع والقدرات التي تمكنها من القيام بمثل هذا العمل.

في شهر أغسطس من العام الماضي، ادعى الخبير الأمني الإيطالي سيموني مارغريتيلي، والذي يعمل باحثًا في شركة أمريكية تعمل في مجال أمن الإنترنيت اسمها زيمبيريام، بأن مؤسسة تابعة للإمارات حاولت توظيفه حتى ينشئ لها فريقًا نخبويًا من الهاكرز. وكانت صحيفة ذي نيويورك تايمز قد نشرت تقريرًا من قبل يبين كيف كانت دولة الإمارات العربية المتحدة تشترى معدات وبرامج تستخدم في المراقبة والتجسس. والآن، بحسب المزاعم، ما لبث الإماراتيون يسعون إلى تنمية وتطوير فريق من الهاكرز يكون تابعًا لهم وتناط بهم مهمة تكوين الفيروسات والبرامج التي تستخدم في الاختراق والتجسس.

بالطبع ذلك ما يحدث بالضبط حينما يعطي شخص مبتدئ في قضايا الشرق الأوسط مثل ترامب الضوء الأخضر إلى جمهور يشتمل على الزعماء العرب الذين يعزى إلى طغيانهم وسوء إدارتهم في المقام الأول إيجاد القاعدة ثم تنظيم الدولة الإسلامية.

لا يقصد من ذلك بتاتًا التقليل من مسؤولية الحكومات الغربية التي تغذي ظاهرة العنف وتمدها بالوقود. لم يكن لدى المخابرات البريطانية أدنى مشكلة في تشجيع المسلمين الذين ولدوا في بريطانيا على القتال في البوسنة وفي ليبيا وفي سوريا – في بادئ الأمر – عندما كان الغيلان هم الصرب والقذافي والأسد. ولكن حينما تنقلب السياسة الوطنية رأسًا على عقب، كما حدث في سوريا بعد عام ٢٠١٢، يعامل هؤلاء الفلاحون العائدون بشكل مختلف تمامًا.

الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ينتقل إلى المركز العالمي لمكافحة الأيديولوجية المتطرفة في الرياض يوم 21 مايو 2017 (رويترز)

ولكن، على أقل تقدير، إذا ما أردنا أن نتجنب الوقوع في كارثة أخرى مثل تلك التي تسبب بها بوش وبلير في الشرق الأوسط – وقد تكون هذه المرة بسبب حرب ضد إيران أو ضد أحد وكلائها مثل حزب الله – فإنه يتوجب على ترامب أن يدرك بأن هؤلاء الحلفاء العرب الذين اكتشف وجودهم مؤخرًا لديهم دوافع مختلفة تمامًا عن دوافع الولايات المتحدة أو أي دولة غربية أخرى تسعى إلى الدخول في فصل آخر من حرب لا نهاية لها على الإرهاب.

إن الهم الوحيد لهؤلاء هو المحافظة على عروشهم وأنظمتهم السلطوية التي تبلغ من البشاعة حدًا تبدو بالمقارنة معه أنظمة مثل نظام مبارك ونظام بن علي تمام التمام. كانت القاعدة تجثو على ركبتيها مستسلمة حينما أسقطت الثورات الشعبية هذين الدكتاتورين وحينما جرت الانتخابات الحرة والنزيهة لأول مرة في كل من مصر وتونس. ثم جاءت داعش بشكل متزامن تمامًا تقريبًا مع الانقلاب العسكري الذي وقع في مصر في يونيو ٢٠١٣. لو أراد ترامب جوابًا قصيرًا على سؤال "من يتحمل المسؤولية عن صعود القاعدة وداعش"، لقد كان الجواب جالسًا بشكل جماعي أمامه مباشرة.

وهذا يجعل تأثير ترامب في الشرق الأوسط أعظم خطورة حتى من التأثير الذي كان لباراك أوباما حينما حاول الانسحاب منه ولكن لم يفلح.

السقوط الحر

كانت لأوباما أخطاء كثيرة، ولقد أثبت بطرق شتى أنه كرئيس للولايات المتحدة كان أشد قسوة على الشعوب العربية من ترامب، لأنه كان يعد بأكثر مما كان قادرًا على الوفاء به. أما ترامب فلا يعد ولا ينجز.

ومع ذلك يمكن تعلم الكثير من المقارنة بين الخطاب الذي ألقاه أوباما في القاهرة في يونيو / حزيران ٢٠٠٩ وقائمة الغسيل الحقيرة اتي ألقيت على مسامع الحضور في الرياض.

أقر أوباما بالمسؤولية الملقاة على عاتقه حتى يتخلص من الفوضى التي خلفها الغزو الأمريكي للعراق، أما ترامب فلم يذكر ذلك البتة. تحدث أوباما عن حقوق الإنسان، أما ترامب فلم يتفوه بالعبارة ولو لمرة واحدة

خاطب أوباما الشعب العربي، طلاب جامعة القاهرة، في مكان يقطر علمًا ومعرفة. أما ترامب فخاطب الزعماء العرب في قاعة تقطر سلطة ونفوذًا. تحدث أوباما عما تدين به الحضارة للإسلام، أما ترامب فيعامل الشرق الأوسط على أنه سوق، أو حسبما عبر عنه هو، كما لو كان مركزًا عالميًا لاقتناص الفرص – كتلك التي اغتنمها وتلقفها بيديه حينما خرج بعقود تسليح بمئات المليارات من الدولارات.

أقر أوباما بالمسؤولية الملقاة على عاتقه حتى يتخلص من الفوضى التي خلفها الغزو الأمريكي للعراق، أما ترامب فلم يذكر ذلك البتة. تحدث أوباما عن حقوق الإنسان، أما ترامب فلم يتفوه بالعبارة ولو لمرة واحدة. تكلم أوباما عن الحياة بينما تكلم ترامب عن الموت، وقال إن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الجهاديين هي إبادتهم ومسحهم من على وجه المعمورة.

لا يقتصر الأمر على أنه لا تلوح في الأفق نهاية لخمسة عشر عامًا من الحرب على الإرهاب، ولا حتى على أن كل لاعب جديد يأتي إلى المضمار يساهم بإذكاء العملية وإبقائها على قيد الحياة – بلير وبوش في عام ٢٠٠٣، وكاميرون وساركوزي في عام ٢٠١١، وترامب ونتنياهو في عام ٢٠١٧. بل في كل مرة تظن أنك قد وصلت إلى قاع هذه الهاوية السحيقة تكتشف أن القاع مازال بعيدًا وأن عملية السقوط مستمرة.

إن العوامل التي أدت إلى تفجر الانتفاضة الشعبية في عام ٢٠١١ أقوى بكثير اليوم مما كانت عليه حينذاك. فالقمع أشد، والدول في كل أنحاء الشرق الأوسط تفشل في توفير الحماية والخدمات الأساسية لشعوبها. لقد انطلقت آلات القتل تفتك بالأبرياء حول العالم. وحتى الآن، قتلت الغارات الجوية التي ينفذها التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة من المدنيين في سوريا ما تعداده ضعف من قضوا نحبهم على أيدي المتشددين من داعش.

لا يمكن لأحد الجزم من هي الجهة التي ستنزل عليها أمنية الموت

كل هذا يجعلك تظن بأن كل من في رأسه عقل سيتوقف ليتدبر ويفكر مليًا قبل أن ينخرط ثانية في تدخل آخر. ولكن، ليس ثمة شك في أننا فيما يبدو نتجه نحو ذلك المصير. ولا يمكن لأحد الجزم من هي الجهة التي ستنزل عليها أمنية الموت. قد تكون هذه الجهة هي جنوب لبنان تارة أخرى. إلا أن ما لا يخطئه الأنف هي رائحة التدخل الوشيك، وما لا يخطئه العقل هو أن عواقب ذلك على الأجيال القادمة من المدنيين الأبرياء ستكون أكثر من كارثية.

المصدر: ميدل إيست آي

رابط المقال: https://www.noonpost.com/18130/